بيزنطة: الجذر المشترك

1 - مدخـــل:

فـي بـدايات هـذه الحقبـة مـن التـاريخ، اتسـعت أربـع إمبراطوريـات كبـرى، مـن المحـيط الأطلسـي إلـى المحـيط الهـادئ. وقـد سـاعد ذلـك علـى الاتصـال الاقتصـادي والثقافي بين ذينك الطرفين من العالم.

من الطرق التجارية كانت تنتقل السلع والتقنيات والخدمات ، بل وكذلك الأفكار والأساطير والديانات.

وابتداءا من القرن الثالث الميلادي ، رأت هذه الإمبراطوريات الكبرى نفسها مهددة بسبب الأزمات الداخلية وعمليات الغزو الخارجي.

الصين انقسمت إلى ثلاث دول مستقلة، وتوارت مملكة الموسومين ب "الحان" وفي إيران نجد الإمبراطورية الساسانية تتسع إلى حدود الهند وتصمد في وجه الهجمات الآتية من روما ومن شعوب الشمال، وفي الهند يتم استبدال إمبراطورية "كوشان" بما يعرف ب " غوبطة" التي لم تستمر طويلا، فقد قضت عليها جماعة تعرف ب " الأوون البيض".

أما في روما فإننا نجد التهديدات الخارجية تنضاف إلى مرحلة طويلة من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والديني، الشيء الذي دفع ديوكليسيانو إلى تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين، توزع الحكم فيهما بين أربعة إمبراطورات.

وفي القرن الرابع الميلادي قام الإمبراطور قسطنطين بعدة إصلاحات لتحقيق الاستقرار وضمان استمرارية الإمبراطورية الرومانية ؛ وكان من بين تلك الإصلاحات نقل العاصمة إلى مكان حصين بين أوربا وأسيا.

فرانسيسكو إوخنيو [1] **(00:39)**

" مدينة القسطنطينية تؤسس فوق بيزنطة القديمة ، وهي مستعمرة إغريقية، تقع في مضيق البسفور ، ونقطة التقاء بين أوربا وأسيا ، ومكان استراتيجي بين الشرق والغرب، ولما نقل قسطنطين عاصمة الإمبراطورية إلى هنالك، كان ذلك بدافع استراتيجي صرف، لأن روما تظل بعيدة عن جبهات العمليات العسكرية وهو ما كان يشكل ضغطا عليها من طرف البرابرة الجرمان المجاورين لنهر الدانوب في أوربا الوسطى والفرس القريبين من نهر الفرات في القارة الأسيوية" .

الإمبراطورية الرومانية توسعت لتشمل سائر حوض البحر المتوسط، ولكن ناحيتها الشرقية كانت الجزء الأكثر ثراءا، وثقافة وعمرانا ، وبذلك تصبح هذه الإمبراطورية وريثة لثقافات مصر القديمة ، وكريت، واليونان، والأناضول والشرق الأوسط .

إن القسطنطينية كان بإمكانها أن تسيطر على التجارة بين بحر إيجة والبحر الأسود، كما فعلت طروادة في القديم، وكانت أقرب إلى منتوجات الشرق التي كانت تصل عبر طريق الحرير.

وبفضل الدعم الإمبراطوري ، والمراقبة الإدارية والتجارية أصبحت هذه الحاضرة أهم مدينة في الإمبراطورية ، وكغيرها من الإمبراطوريات، فإن الإمبراطورية الرومانية ستعاني في القرن الخامس الميلادي من جراء الضغط المتزايد على حدودها الجغرافية، كما أصبحت تتهيأ أسباب تصدعها الداخلي.

بيدرو بادیناس 2 (00:37)

" البرابرة لم يصلوا بين عشية وضحاها، كما أنهم لم يكونوا من كواكب أخرى، فقد كانت هنالك أجيال منهم تعاقبت متاخمة حدود الإمبراطورية من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، كانت هناك شعوب متقاربة، وكانت روما أيضا في حاجة إليها، وبشكل أو بآخر أصبحت هذه الشعوب جزءا من مدارها، وفي بعض الأحيان بقوة متباينة، ولا سيما في " الجهة الغربية ، حيث تمكنت عمليا من تعويض البنيات السلطوية آنفة الذكر".

إن تقسيم الإمبراطورية الرومانية وانتقال عاصمتها إلى بيزنطة ضمن استمرارها ألف سنة لاحقة قبل وقوعها في أشأم مصير وهو ما يعرف بسقوط الإمبراطورية الرومانية ، إذ لم تفقد بسببه سوى أقاليمها الغربية.

لقد ألحقت الإمبراطورية الرومانية الشرقية بالحضارة الرومانية قيمة مضافة تمثلت في عناصر إغريقية ومن شعوب أخرى كثيرة.وفي بيزنطة انصهرت كل هذه العناصر مع الديانة المسيحية وثقافتها ، وانعكس ذلك في المؤلفات وفي الفن وفي أنموذج إمبراطوري جديد، وقد تجاوز تأثير ذلك حدود الإمبراطورية واستمر في دول وثقافات أخرى ليصلنا نحن كذلك في العصر الحديث.

2- المسيحية باعتبارها توليفة للعالم القديم:

في القرن الثالث الميلادي يعيش العالم القديم أزمة عميقة، ففي المراحل المتأخرة انهارت القيم الثقافية والاجتماعية، وأصبح الجانب المادي مسيطرا.

ـ أتاناسيوس ماركوبولوس 3 **(00:44)**

" منذ تأسيس القسطنطينية عام 330 بعد الميلاد ، كانت ثمة ديانات كثيرة تتعايش فيما بينها في الإمبراطورية الرومانية ، وليس فقط ديانة القدماء التي طرأ عليها تغيير ، بل أؤكد أنه كان هنالك عدة ديانات تقليدية مختلفة، وأخرى بتأثيرات مصرية وكذلك بالمسيحية التي أصبحت تتقوى مع الزمن، وهذا أمر واضح، ولكن من الأمور اليقينية أيضا أن الديانات القديمة تقوضت و انقرضت مع الزمن.

مع هذا الانقراض التدريجي تكون عدد كبير من المعتقدات والإجابات الأخلاقية والفلسفية ، كالإبوقراطية والرواقية والأفلاطونية الجديدة من جهة؛ ومن جهة أخرى الديانات الشرقية المتعددة . من مصر تلتحق الغنوصية إلى جانب إزيس مع الطفل هوروس و هسريس الإله الذي يموت و يبعث من جديد.

من اليونان النزعة العرقية و ديانات الأسرار كتلك التي تعود إلى إليوسس وثقافة ديونسوس الإله الذي يموت و الذي ينزل إلى الجحيم ثم يبعث من جديد ، إلى جانب ذلك هنالك الجبل المدعو دلفوس و هو جبل الحجاج المقدس و عماد الصرح الميتولوجي القديم . و في الأخير ـ وإن كانت بنسب أقل ـ بعض جماعات المخلصين كجماعة المعالجين .

و كواحدة من هذه الفسيفساء من المعتقدات ، نلاحظ أن الديانة المسيحية تنتشر بسرعة نظرا لطبيعتها الإنسانية، و ذلك لتمرير أمل جديد للمستضعفين نظرا لقيمها المتسامحة و الأكثر إنسانية. و بالموازاة مع ذلك فإن تجمعات صغرى من الآراميين في صحراء مصر كانت قد بدأت تتكون . و في القرن الرابع الميلادي كونت مجموعات تقوم على بنيات متماسكة و على أساس من الضوابط. مما شكل النواة الأولى للتنظيمات الديرية ، و التي غدت في القرون الموالية أحد الأعمدة القوية للبنيات الاجتماعية بسبب النضج الذي أحرزت عليه و الازدهار الذي عرفته في الشرق و الغرب على السواء .

و من جهة أخرى ، فإن وصول المسيحية إلى الشرائح المثقفة ، حيث كانت المعرفة الكلاسيكية منتشرة بشكل واسع في أوساطهم ، فقد كان من الضروري تقوية علم الأديان و الفلسفة اللاهوتية . هذه المهمة نهض بها رهبان الكنائس معتمدين على عناصر و معطيات الفلسفة الهيلينية و الأفلاطونية الأسكندرانية الجديدة .

و مع بداية القرن الرابع للميلاد و أمام تصدع العالم القديم قام الإمبراطور قسطنطين بالبحث عن سبيل جديد للالتحام الاجتماعي لضمان استمرارية الإمبراطورية ، حيث قام سنة 313م بالاعتراف بحرية العبادة و أصدر مرسوما في ذلك الشأن ، و بعد ذلك دعا إلى اعتماد ديانة مسيحية رسمية مرنة تقوم على أساس استيعاب مجموعة من العبادات القديمة ذات جذور مختلفة مستوعبة أساطير وعبادات و تقاليد الأماكن التي تصلها .

ميخائيل سيكوف 4(00:28)

" مع انتشار المسيحية في القرن الرابع الميلادي ، بعد أن أصبحت الديانة الرسمية للدولة مع حكومة قسطنطين ، فإن التقاليد الوثنية لم تختف بحال من الأحوال من التعليم و التربية (...) و من جهة أخرى فإن المربين لأبناء قسطنطين الأعظم الإمبراطور الذي أدخل الديانة المسيحية كانوا فلاسفة و مؤرخين وثنيين".

إن جزءا من الثقافة الكلاسيكية و المنشآت الرياضية و الافتتان بالجمال الجسماني و المسرح القديم و الشعر استبدل بالتدريج بالثقافة الجديدة المتمثلة في الكتب المقدسة .

3- تنمية و ترويج الأنموذج البيزنطي

أ ـ ثقافة الكتاب :

ـ ميخائيل بيكوف (00:26)

" الثقافة البيزنطية هي ثقافة الكتاب ، موجهة نحو معرفة أساسية بالكتاب ، ملخصة التقاليد الهيلينية الوثنية و الفكر المسيحي مرتكزة حول الكتاب ، الذي كان الأساس لكل بحث علمي و لكل معرفة ".

و على الرغم من وجود ثقافة شفوية مهمة ، فإن بيزنطة عولت بالأساس على الثقافة المكتوبة .

إن الاطلاع على الثقافة الإغريقية الكلاسيكية أتاح المجال للمحافظة و دراسة النصوص القديمة .

- غوغليمو كباجو 5 **(00:36)**

بيزنطة كان ينظر إليها دائما كجسر لتمرير الثقافة الكلاسيكية ، و كان ذلك حقيقة واقعية . فقد ساهمت بشكل معين في نشر النصوص القديمة التي تتمثل في روائع الفكر الإنساني الكلاسيكية ، بدءا من هومروس إلى دمسطنس و من لسيودو إلى لسياس إلى جانب مؤلفين قدماء كثيرين آخرين . واستمر ذلك الدور البيزنطي إلى العصر الحديث.

إن المسيحية كانت تأخذ القديم الكلاسيكي وتحوله إلى أدب، فالأبطال القدامى مثل أكيلس وأوليس وهكتور أوجدت لهم مهارات جديدة أكثر انسجاما مع قيم جديدة، فقد أصبحوا يتعايشون مع القديسين والشهداء ، وقد ظهر جنس أدبي جديد هو التصوف أو الأدب الصوفي الذي يحتل فيه القديس أو الولي الصالح الشخصية الأدبية بامتياز.

إن الكتابات القديمة كانت هي الكتب المدرسية، وشيئا فشيئا أصبحت الكتب المقدسة تحل محلها. وفي هذا الاتجاه، نجد الإمبراطور خوستنيان أواسط القرن السادس الميلادي يقرر إغلاق أكاديمية " أثينا" آخر معقل للثقافة الفلسفية القديمة ، لاعتبارها ثقافة وثنية.

وبانصرام بضعة قرون والتي سميت " بالمظلمة" بدأت خلال القرن التاسع للميلاد عملية الاسترجاع السياسي والاقتصادي والثقافي.

لقد بدأت الإمبراطورية توسيع حدودها الجغرافية ووصلت المسيحية إلى الدول الصلافية ونجد أن دراسة مؤلفات رهبان الكنيسة تسفر عن إعادة إكتشاف الأدب

اللائكـــي الإغريقي.ويعـــاد النظـــر فـــي تنظـــيم مدرســـة " المغنـــورة" بالقصـــر الإمبراطوري.نفســه، حيـث كانـت تـدرس الفلسـفة والنحـو والبلاغـة والرياضـيات والهندسة وعلم التنجيم، وأصبحت للموسوعات شهرة تداولية واسعة.

وأعيد استنساخ التاريخ والعلوم والأدب بكثافة في هذا الوقت وذلك بفضل الكتابة الصغيرة للحروف. وقد استشعرت بيزنطة جراء ذلك الزهو لكونها أمست وريثة الثقافة اليونانية القديمة، والتي أصبحت في هذا الوقت محط اهتمام العرب كذلك.

وبعد ذلك بقرنين من الزمن نجد قسطنطين التاسع يدعم المدرسة الإمبراطورية للدراسات القانونية والفلسفية والتي كان يديرها ميغيل بسيلو،ولعله كان أعظم موسوعي عرفته بيزنطة على امتداد الأزمان.

وبالخراب الذي تعرضت له هذه المدينة سنة 1204م، فإن الكثير من المخطوطات تعرضت للإتلاف ولكن انهيار بيزنطة لم يكن سوى انهيار عسكري وسياسي.

وبعد استرجاع القسطنطينية فإن ميغيل الثالث عشر، الذي كان فاتحة العائلة الملكية " الباليوغية" أعاد ترميم الدراسة الفلسفية العليا والأكاديمية الأسقفية، مستهلا بذلك مرحلة من الازدهار، لعلها كانت المقدمة لحركة البعث الإيطالي فيما بعد.

ومن المنارات الثقافية والفكرية التي توهجت من أواخر القرن المذكور منارة (Mistra) .

فابتداءا من 1300م، أصبحت بيزنطة تسترجع كامل نبضها وعنفوانها الفكري، حيث ظهر فيها بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الملاديين عدد من الموسوعيين ذوي النزعة العلمية التبحرية أمثال: ماكسيم بلانودس، وتيدور ميطوكطس، وبرلان ذي كلابريا، وجورج خمسطو بليتون، الذين جعلت منهم ثقافتهم الواسعة ومعرفتهم الشمولية أقانيم ووضعيات ثقافية للبعث الفكري أوانئذ.

ب ـ الفن باعتباره وسيلة دعائية للدين

ـ أولغا إفخنيفنا إطنغوف 6 (00:38)

" إن الهندسة والزخرفة الطقوسية والأيقونية وفن الأوضاع الصغيرة وغيرها من المنتوجات الفنية كونت عالما عملاقا، كان يشغل في عمومه حيزا من الأهمية بمكان في الحضارة البيزنطية ، وعلى الخصوص في الجانب المعرفي والتربوي".

إن الفن البيزنطي يستمد جذوره من العالم الهيليني ـ الروماني، ولذلك نجد في المراحل الأولى من الزمن كانت تقدم الموضوعات الميتولوجية القديمة ممزوجة بالقيم المسيحية مع المحافظة على التقاليد القديمة لفن النحت.

فبالنسبة لكنيسة القديسة صوفيا santa sofia المشيدة في القرن الحادي عشر للميلاد خلال حكم " جوستنيان " ظلت طوال ألف سنة أعظم صرح كنسي للديانة المسيحية ، إلى غاية بناء كنيسة القديس بدرو san pedro في روما.

لقد أصبحت كتدرائية " القديسة صوفيا " الأنموذج الأمثل للمعابد البيزنطية نظرا لقيمتها الجمالية والرمزية .

ـ أولغا إفخينفنا إطنغوف (00:37)

" ..يمكن اعتبارها ـ أي الكنيسة المذكورة ـ إحدى الروائع العظمى للإنسانية ..."

".. إن سفراء أمير " كييف " فلادمير القديس، في أواخر القرن العاشر الميلادي ، عندما وصلوا إلى القسطنطينية وتحديدا إلى كتدرائية القديسة صوفيا تملكهم الإعجاب وظلوا مشدوهين منبهرين، حيث التبس عليهم الأمر، أهم في الأرض أم في السماء "

.

إن إنتاج الأيقونات والرسوم الجدارية أو على الأخشاب كان من الكثرة بمكان، وكانت في عمومها تصور القصص الإنجيلية وحياة المسيح ومريم العذراء والقديسين ، وكانت تلك الرسوم في البداية تمثل طقوسا تذكر بالفن المصري القديم.

ـ خوغليلمو كبايو (00:42)

" إن أحد عظماء الفكر واللاهوت ببيزنطة خوان دمسثينو، يتحدث عن فن الرسم كأنه " كتاب الأميين " لأن هؤلاء الذين لا يستطيعون القراءة والتعبير عن المنظومة الفكرية المسيحية من خلال الكتابات كان بإمكانهم ذلك من خلال الرسوم الزيتية

والتصاوير التي تتناول المشاهد المقدسة، الأمر الذي يقربهم من استيعاب العقيدة المسيحية وتلقيها، وهكذا أصبح ينظر إلى فن الرسم ككتاب عظيم بالنسبة للأميين ".

وبين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين وبموجب ظهائر إمبراطورية الموسومة بالظهائر الأيقونية منعت التمثيليات الدينية ، كما تم سحب الأيقونات من المعابد.

- نيبرا نيثيبوغلو 7 (00:27)

" كان يوجد تقليد ديني مخالف للتصورات التي تعود إلى " العهد القديم" وهو تقليد يخص بالأساس الشرق الأدنى برمته ، بمعنى أننا نلمسه في العالم الإسلامي وفي العالم البيزنطي وفي مراحل زمنية متقدمة ".

في القرون الموالية نجد أن الإمبراطورات والكنيسة يشرعون في عملية مهمة حيث بنيت عدة كنائس جديدة و أديرة للحماية والرعاية . وقامت الصناعة التقليدية بالمحافظة على المعالم.

إن الفن البيزنطي يعتبر فنا فريدا ومثلا شرودا في الروعة والفتون ، ذلكم الفن الذي استطاع أصحابه المحافظة على تقنيات قديمة وإعطاء المواد المستعملة قيمة تيولوجية عظمى.

إن الذهب والفضة و الفسيفساء والمرمر والأحجار الكريمة كانت تتضافر مجتمعة فتحدث توهجا وألقا كان يعكس النور الإلهي ويمثله.

ج - بيزنطة كأنموذج إمبراطوري

إن الإدارة المتماسكة والصلبة للإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت أنموذجا إداريا انتقل إلى العالم الروسي الصلافي، و إلى أوربا الغربية وإلى الإدارة الخليفية العربية.

إن الإمكانية البناءة للإمبراطورية كانت أساسية لاستمراريتها، لقد تحملت أسوارها المتينة خلال ألف سنة هجوم الكثير من الشعوب إلى أن ظهر البارود والمدافع.

و من الأمثلة الرائعة الأخرى على عظمة هذه العاصمة تلكم الصهاريج المنقولة التي كانت توفر الماء لساكنة قدرت في بعض المراحل بأكثر من خمسمائة ألف نسمة .

و تلك الشعوب التي فشلت أمام تلك الأسوار، كانت تحاول غزو الأسطورة أو الحلم الذي كانت تمثله القسطنطينية : مدينة الذهب . لقد كانت مواردها الاقتصادية نظرا للمراقبة التجارية التي كانت تمارسها . و الاحتفال الإمبراطوري إلى جانب القصور والفسيفساء والحرير والصناعة الفضية، هذه الأمور كانت تغذي صورتها الأسطورية كمنبع للخيرات فقد كان لهذه المدينة الأسطورة رموزها الخاصة.

ـ أطانسيوس مركوبولوس (00:37)

" في عالم روسيا الحالي يظهر النسر برأسين الذي يعتبر رمز بيزنطة ، وقد تبنى الروس ذلك معتبرين أنفسهم ـ وهو كذلك إلى حد ما ـ ورثة بيزنطة وأن الإمبراطورية الروسية هي إرث بيزنطي، ولم يقتصر ذلك على روسيا، بل هنالك دول أخرى تستعمل رمز النسر ذي الرأسين معتبرة أن لها جذورا في الإمبراطورية البيزنطية".

ثمة أنموذج آخر تم احتذاؤه عندما قام قسطنطين بتبني التاج الفارسي باعتباره رمزا لسلطة الإمبراطورية. بهذا الإجراء يكون قد سن تقليدا للتباهي ظل متوارثا، فقد اعتمد من لدن كل الملكيات المتعاقبة.

ـ خيسوس كربلس 8 (00:39)

" ومنذ ذلك الحين تأسست في طليطلة ثقافة تقليد كل ما كان يحدث في القسطنطينية ، وهكذا فإن هذه المدينة أواخر القرن السادس الميلادي كانت نسخة من البلاط الإمبراطوري الذي أرسى دعائمه قسطنطين في تلك المدينة ".

تلك هي الصورة المثالية للإمبراطورية التي حوفظ عليها في الشرق ، هي الفكرة الأساس و المرجعية الأساس المعتمدة في طليطلة في إسبانيا .

و قد كان طبيعيا أن يحدث ذلك نظرا لوجود عالم ذي قواسم مشتركة ، وثقافة متوسطية مشتركة . فالذي يملي القوانين هو نفسه الذي يشرع العادات".

و لعل أهم إنجاز في هذا المضمار كان هو القانون الروماني ، فبفضل جهود الإمبراطوريين طيودسيو و جوستنيان تم الاحتفاظ على القانون المذكور و توزيعه على أوسع نطاق .

و تلك الوثائق هي التي شكلت الدعامات الحقيقية التي نهضت عليها قوانين الدول الأوربية و الأمريكية فيما بعد.

ـ فرانسسكو أوخنيو (00:25)

" الحركة التشريعية في القرن التاسع عشر في أوربا أخذت بعين الاعتبار وبشكل أساسي عند كتابة القوانين المدنية المختلفة ما كان متاحا في القانون الروماني، سواء في فرنسية نابليون أو الألمانية أو الإسبانية، بل و كذلك خارج أوربا ، كما في القانون الياباني لسنة 1898م . بالرغم مما يثير ذلك من استغراب! و الذي أدخلت عليه مؤخرا بعض التغييرات بما يعرف بقانون 2004م".

إن تأثير بيزنطية يمكن متابعة رصده إلى اليوم ، إن الثقافة و الأنموذج البيزنطي انتشرا عبر طرق و قنوات مختلفة .

4ـ قنوات نقل المعرفة :

أ ـ القناة الإسلامية :

مع بداية القرن السابع الميلادي ، أصبحت الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية مستنزفتين بفعل الحروب الطويلة ، و غدت الطرق التجارية البعيدة عن مواطن الصراع تتقوى ، كما كان الشأن بالنسبة للمنطقة العربية ، التي تتمركز حول مكة . في هذا الظرف كان العرب و ديانتهم الجديدة الإسلام ينتشرون بسرعة بالشرق إلى حدود الهند و بالغرب إلى إسبانيا.

و تمكن الإسلام من السيطرة على مناطق تابعة للإمبراطورية البيزنطية كانت مأهولة بشعوب مسيحية كثيرة ، كان بها صناع و إداريون و كتاب و غير ذلك من المهارات البيزنطية .

ـ ماريا مبرودي 9 (00:17)

" عندما يحدث مثل هذا ، يكون واضحا أن عزوا جديدا لا يمكنه أن يحقق دولة تنطلق من فراغ ، و إنما عليه أن يعتمد على ما هو متأصل في بنياته الاجتماعية و الإدارية ".

في بداية الدعوة إلى الإسلام كانت القبلة التي يتوجه نحوها المصلون هي بيت المقدس قبل أن يتحولوا إلى المسجد الحرام أو الكعبة المقدسة بمكة .

و قد كانت الدعوة إلى الإسلام تتم عبر الطريقين الشفوي و الكتابي ، و قد حال ذلك دون استعمال الرموز و الصور بأماكن العبادة .

و قد عادت النظرة إلى المعرفة الكلاسيكية الهيلينية بعد مرور بضعة قرون على ظهور الإسلام . و قد حدث ذلك أيضا في النهضة الأوربية .

و لكن العرب لم يأخذوا عن المعرفة الكلاسيكية الجانب الأدبي والمسرحي، و إنما انصب اهتمامهم على الجانب الفلسفي و العلمي منه بوجه خاص.

إن خلفاء أمثال المامون يتوجهون إلى بيزنطة للحصول على المخطوطات النفيسة للعلماء القدامى . و كان يتعين على إغريق آسيا الصغرى القيام بترجمة تلك الأعمال و النهوض بعبء نقلها إلى السريانية و العربية .

- كروبلـــس (00:22)

" ... إن المسيحيين بسوريا و من ديانات أخرى ، كانوا ينتسبون إلى العالم البيزنطي من حيث الثقافة و هم الذين قاموا بترجمة كل الأعمال التي أنتجها العالم القديم ، كل المعرفة القديمة . و كل ما سيجده العالم العربي عندما أصبح يتمركز حول دمشق ، في إطار الخلافة الإسلامية العظمى".

" كل ذلك كان أيضا الأصل لمدرسة الترجمة بطليطلة على سبيل المثال".

اليونانية أغنت اللغة العربية، بينما نجد أفلاطون وأرسطو وغيرهما من المؤلفين الهيلينيين يغذون مختلف التيارات الفكرية والروحية.

- ماريا مبرودي (00:24)

"... إن العرب أو المسلمين لم يستقبلوا الإرث الكلاسيكي الإغريقي مباشرة، إن ما استقبلوه هو ما مكنهم منه البزنطيون، وقسم مما تسلموه هو الترجمة البيزنطية لما

كانت تشتمل عليه تلك النصوص، التي أخضعوها لحاجياتهم وكيفوها وفق تصوراتهم ".

إلى هذا التلاقح تنضاف عناصر من الثقافة الفارسية والهندية، لقد خلق العرب ثقافة تسعى إلى الكونية بإدماج العلوم والفلسفة الإغريقيين في تصورهم الإسلامي للعالم.

في سنة 1453م.استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية (إسطبول الحالية) وحلوا محل البيزنطيين، وفي المناطق نفسها تقريبا، في الوقت الذي تجدد فيه الصراع والمواجهة بين ما كان يعرف بالجانبين الغربي والشرقي للإمبراطورية الرومانية. وأصبحت القسطنطينية مركز مختلف الإثنيات لحضارة جديدة، هذه الحضارة قامت على أساس تقاليد تركية منغولية وإسلامية وبيزنطية.

- بنرا نيثيبوغلو: (00:23)

" أن يكونوا ورثة الإمبراطورية الرومانية يعني أنهم بالاستيلاء على إسطانبول، يصبح العثمانيون قادرين على تكوين إمبراطورية عظمى تدار من مركز محوري ألا وهو إسطنبول.

وكان شأن الأتراك العثمانيين كشأن البيزنطيين ، فقد أبقوا على البنيات المتعددة الثقافة والمتعددة الجنسيات والمتعددة اللغات والمتعددة المذاهب".

ب - القناة الصلافية

- بدرو باديناس (00:24)

"... لبيزنطة وظيفة أساسية، تكمن في السياسة الذكية جدا المستهلة من قبل الإمبراطورات البيزنطيين، ومن قبل الكنيسة الشرقية لاستقطاب تلك الشعوب الجديدة، التي ظهرت على حدود نهر الدانوب أو الآتية من السهوب. وهو ما يعطي الحضور لدبلوماسية ذات أهداف والتي ستتولى في البداية مهمة نشر الإنجيل بين الصلافيين في وسط أوربا، أو ما يطلق عليه الآن اسم الدول اليوغوسلافية بوهيميا، مورابيا، وقد نهض بهذا الدور التبشيري ونقل الثقافة الإنجيلية الأخوان " ثيريلو" و" ميطوديو " اللذان كانا يتحدثان اليونانية والصلافية في آن، ولكنهما كان بيزنطيين

وعلى الأرجح صلافيين معتنقين للمسيحية ، ومستعملين أيضا للهيلينية الإغريقية فيما يتعلق بلغة اللأهوت.

وقد لعب هذان الأخوان دورا مهما في جعل هذه الشعوب بوسط أوربا تدور في فلك بيزنطة عقديا، وساعدا في حملها على نقل العقيدة المسيحية إلى لغاتها الأصلية.

وهكذا نشأ ما يعرف باللهجة الشيريلية القديمة التي تطورت هنالك مع الزمن محتفظة بذلك الإسم".

إن المنطقة الصلافية باتصال مع بيزنطة تحولت إلى قطب للتأثير كان يتخذ شكله وفقا لأصحاب الإمبراطورية.

إن التأثير في الشمال الصلافي يتزايد باستمرار و يتوسع حتى يصل إلى روسيا ، فترسل بيزنطة المهندسين و العمال التقليديين المهرة للمشاركة في بناء صروح و معالم مثل " القديسة صوفيا " بمدينة " كييف" أو كنائس الدعوة و القديس باسليو بمدينة موسكو .

- أولغا إفغنفنا (00:38)

" و بنفس الطريقة تماما في الدول الصلافية الأورتدكسية: بلغاريا، صرفيا، مورافيا وروسيا، فإن التقليد ما بعد البيزنطي تمت المحافظة عليه إلى غاية القرن الثامن عشر، وفي بعض الجهات إلى غاية التاسع عشر الميلادي ، لدرجة أن ذلك قد حقق تلك القدرة الهائلة للمحافظة على هاتيك الثقافة الفنية ".

في موسكو التي أطلقت على نفسها " روما الثالثة " كان القيصر يتصرف حسب الأنموذج والرمزية الإمبراطورية.

في الحقل الروحي انطلاقا من مركزه " بجبل أتهوس " " تنتشر ظاهرة صوفية جديدة الهسكسم " HESICASMO" وهي كلمة مشتقة من هسيشيا " Hesychia" هذا العمق من التجربة الدينية دفع إلى تجديد الكنيسة الأورتدكسية التي تأصلت في روسيا، وقد كان لها تأثير على وضعيات وشخصيات أمثال تولستوي ودوستوجفسكي.

ج - القناة الإيطالية

منذ البداية كان ثمة تنافس قوي بين بيزنطة وبين ما يسمى اليوم إيطاليا. إن خلق إمبراطورية كان أكبر حدث أوجد قطيعة بين الكنيسة الارثدوكسية والكنيسة الكاتوليكية، وقد بلغ هذا الانشقاق ذروته في الغرب سنة 1054م، وهي مرحلة بداية الحروب الصليبية.

في العام 1204م، نجد أن الحرب الصليبية الرابعة بدعم من البحرية بالبندقية، تقوم بغزو القسطنطينية مجردة إياها من كنوزها ومتلفة جزءا هاما من كتبها القيمة التي ضاعت إلى الأبد.

في حين أنه ابتداءا من القرن الثالث عشر الميلادي نلاحظ أن العلاقات الثقافية والتجارية قد أخذت في الاستقواء ، وفي العام 1430م، حاول مجمع فلورنسا تقريب الفجوة بين المسيحيين الرومان والأورثدكسيين.

وبهذه المناسبة نجد وفدا بيزنطيا يسافر إلى تلك المدينة، كان مؤلفا من شخصيات أغلبها تنتمي إلى " حلقة مسترا" أمثال جورج خمستو بليتون، حاملين معهم مجموعة ضخمة من النصوص التي تعود إلى المعرفة الإغريقية القديمة.

وبعد سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين سنة 1453، نجد أن تلك الطريق نفسها سيسلكها الكثير من البيزنطيين.

ـ ميخائيل بيبيكوف (00:49)

" كما يمكن أن يتخيل، فإن فلورنسا كانت تضم أهم ما اشتملت عليه الثقافة الأوربية لذلك الوقت. ولذلك عندما سقطت الدولة البيزنطية باعتبارها نظاما سياسيا جراء الغزو العثماني فإن الكثير من المشتغلين بالعلوم الإنسانية من رجال التربية هاجروا إلى الجامعات الإيطالية و تقلدوا أرقى المناصب العلمية بمراكزها العلمية والتربوية".

إن ترجمات النصوص الإغريقية ستتضاعف انطلاقا من دروس جورج خمسطو بليتون وكوسمي دي ميديثى الشيخ الذي أسس في مدينة فلورانسا الأكاديمية الأفلاطونية التي اهتمت بترجمة نصوص أفلاطون التي تنضاف إليها نصوص من أصل اسكندراني تتعلق بالتقاليد الصارمة.

إن الإنسان النهضوي المنفتح على تصور جديد للعالم، يبحث عن مرجعيته في القديم الكلاسيكي.

إن الاهتمام بجمالية الجسم الإنساني والبعد الطبيعي والإتقان التقني للكلاسيكيين أمور عادت كلها لتصبح متداولة كماعادت الأساطير الإغريقية لتأخذ مكانها في الوجدان الأوربي باعتبارها رموزا تنطوي على حقائق عميقة.

إن المعرفة القديمة التي حافظ عليها البيزنطيون طوال 1100 عام سوف تغذى إنتاجات الإنسانيين خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، وكل الجوانب العلمية والروحية والفنية الأوربية لم تستطع الانعتاق من إسار ذلكم التأثير العميق.

5- استنتاجات

ـ استمرارية الإمبراطورية الرومانية باعتبارها وريثة النزعة الهيلينية والثقافات القديمة لحوض البحر المتوسط. جعل من بيزنطة عقيدة للعالم القديم متطابقة مع الديانة المسيحية .

ـ قسطنطين يطبق العقلية الرومانية المنظمة على الديانة الجديدة في محاولة لتخليد الإمبراطورية.

ـ بيزنطة تحافظ على الثقافة الكلاسيكية في مرحلة تاريخية انطبعت بعدم التماسك الاجتماعي و الثقافي .

ـ أطنسيوس مركوبولوس (00:23)

" ينبغي أن أقول لكم إن كل ما أمكن المحافظة عليه من الضياع حتى الآن من تقاليد المرحلة الهيلينية القديمة ، أقصد كل العادات و أعمال الكتاب التراجيديين والكوميديين و المؤرخين و الخطباء ..إلخ ، كل ذلك نجا بفضل بيزنطة ".

كما خلقت بيزنطة أنموذجا تنظيميا و هندسيا و فنيا و دينيا قام الغرب بتقليده، و كذلك أوربا الروسية ـ الصلافية و العالم الإسلامي بعد إخضاعه ليتلاءم مع طبيعته الخاصة.

إن بيزنطة هي الجذر المشترك و ملتقى الروافد و نقطة التقاء الحضارات .

ـ بيدرو باديناس (00:25)

"لعل الدراسة و المعرفة العميقة ببيزنطة ـ لما تمثله باعتبارها أعظم نواة حضارية في هذا الوقت الذي يشكل مرحلة اندماج أوربي ـ يكونان أكثر إلحاحا من

أي وقت آخر، فباستثناء بعض الحقول العلمية الدقيقة بالغرب ، كانت بيزنطة دائما غير معروفة كفاية ، إن لم نقل مجهولة تماما ".

- نيفرا نيثبوغلو (00:28)

" في أجواء علمية: نرى أن اتجاها يميل إلى اعتبار تركيا الحالية هي الوريثة جغرافيا وثقافيا للإمبراطورية البيزنطية وللأمبراطورية الرومانية الشرقية بوجه عام.وذلك كجزء من إرثها الثقافي".

إن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية الذي تتخلله أوقات من الصعود والانحدار، يفيدنا في معرفة وفهم التاريخ الحديث متجاوزين الأحكام المسبقة والنزعات القومية التي عتمت عليه طوال 500 سنة سواء في الشرق أم في الغرب.

إن معرفة الماضي وفهم الروافد الثقافية للشعوب التي تضافرت لصنع التاريخ المشترك، يمكن أن يساعد في المستقبل على بناء وطن إنساني وكوني.

الإحـــالات:

1ــ **فرنسيسـكو أوخنيـو**: أسـتاذ القـانون الرومـاني ب UNED (حـوار بمدريـد فـي 2007/12/27).

2ـ **بدرو باديناس دي لابينيا**: أستاذ باحث ب CSIC مدير سابق لمعهد سرفانطس بأثينا (حوار بمدريد بتاريخ 2007/06/21) .

3ـ **أطناسيوس مركبلوس**: مدير شعبة التركية وأسيا بجامعة أثينا (حوار بأثينا بتاريخ: 2007/10/15).

4ـ **ميخائل بيبكوف**: أستاذ دكتور في التاريخ ، نائب مدير معهد التاريخ العام بأكاديمية العلوم بروسيا، أستاذ بجامعة لومونوسوف بموسكو (حوار بموسكو في 2006/10/24).

5ـ **غوغليلمو كباجو**: أستاذ التعليم العالي كرسي الفكر الإغريقي بجامعة <<لاسبينثا>> بروما وعضو بأكاديمية LINCEI (حوار بروما في 2007/12/06).

6ـ **أولغا إفغنفنا إتنغوف**: دكتورة في الفن، باحثة بمعهد الشرق بأكاديمية العلوم بروسيا، أستاذة الفن البيزنطي بجامعة لومونوسوف بموسكو وبالجامعة الروسية للعلوم الإنسانية(حوار بتاريخ 2006/10/24).

7ــ **نيفـرا نسـبغلو**: أسـتاذة التـاريخ البيزنطـي بجامعـة البوسـفور (حـوار باسـتانبول فـي 2007/10/19).

8ـ **خسوس كربلس**: أركيولوجي ببلدية طليطلة ومدير معهد خوان دي مريانا (حوار في الوثائقي السابق " طليطلة والإسكندرية منارات الإنسانية ") شارك ودعم مختلف نشاطات pangea (حوار بطليطلة في 2007/07/19).

9ـ **ماريا مبرودي**: أستاذة التاريخ والدراسات الإغريقية بجامعة برنثيطون (حوار في برنثيطون في 2008/01/06).

قام بالترجمة عن الإسبانية الدكتور:
العيـاشي حـدوش
أستاذ التعليم العالي بجامعة عبد المالك

السعدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بتطــوان
وأستاذ زائر بجامعة الكمبلوتنسي
بمــدريـد